اجتهادات
هل انتهى الصراع الطبقى؟

لم يعد ثمة مجال لصراعٍ طبقى فى عصرنا. هذا اعتقادُ شائع على نطاقٍ واسع. لم يكن هناك صراع طبقى أصلاً فى أى وقت. وهذا اعتقاد أقل شيوعًا، ولكنه منتشر فى بعض الأوساط. وفى هذا وذاك خلطُ بين الصراع الطبقى كمفهوم متجدد دومًا، وكنظرية ارتبطت بزمنها فى القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين.

كان العالم أبسط وأقل تعقيدًا، عندما أخذ كارل ماركس مفهوم الصراع الطبقى من مؤرخين فرنسيين سبقوه إليه، وطوَّره وجعله المُحرَّك الرئيسى للتغيير الاجتماعى. كان التناقضُ الطبقى واضحًا فى كثيرٍ من المجتمعات بأشكالٍ مختلفة، سواء أدى إلى صراعٍ أو بقى فى صورة تباعد بين من يملكون الثروة والسلطة، ومن يبيعون قوة عملهم. وكان هذا التناقض أكثر وضوحًا فى الدول الأوروبية التى دخلت عصر الصناعة حينذاك. وهى التى

بنى ماركس نظريته على رؤيته لما حدث فيها، وما تصور أنه سيحدثُ على أساس أن التناقض يُوَّلد صراعًا، وأن اعتماد الطبقة البورجوازية على قوتها الاقتصادية المسنودة بسلطة الدولة يدفع البروليتاريا إلى رد فعلٍ لا يقل قوة.

غير أن طبيعة التناقض اختلفت فى القرن العشرين عندما طورت الطبقات المالكة أدواتها لتكريس هيمنتها. ولكن هذا الاختلاف لم يؤد إلى انتهاء التناقض الطبقى، وإنما إلى تغير فى آثاره. ولهذا صار ضروريًا التمييز بين نظرية ماركس، ومفهوم الصراع الطبقى الذى يعودُ إليه فضل بلورته. وكان مفكرون ماركسيون هم من سبقوا غيرهم إلى هذا التمييز مثل ماكس هوركهايمر وتيودور دورنو (مدرسة فرانكفورت)، ثم أنطونيو جرامشى ولوى ألتوسير. فقد انتبهوا مبكرًا إلى أن الرأسمالية تمكنت من توظيف مؤسسات تعليمية وثقافية واجتماعية لتبرير سيطرتها عبر التأثير فى الوعى العام.

كما أسهم تنامى دور الأحزاب الديمقراطية الاشتراكية وبرامج الرعاية والحماية الاجتماعية فى خفوت الصراع

الطبقى، ولكن ليس إلغاء التناقض بين الطبقاتo فقد ازداد هذا التناقض منذ الثمانينات مع انتشار الليبرالية الجديدة وتوسع نفوذ الرأسمالية المالية. كما أن خفوت الصراع الطبقى لم يحدث بمقادير متساوية بل متفاوتة, الأمر الذى يتعذر معه الحكم بأنه انتهى.